الفصل الثالث

التقوى دعوة الرسل

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الأول : تفسير نصوص دعوة الرسل إلى التقوى «نظرة إجمالية».

المطلب الثانى : التكرار في الأمر بالتقوى.. إشاراته وحكمه.

المطلب الثالث : تنوع أساليب دعوة الرسل إلى تقوى الله تعالى.

المطلب الرابع : مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك.

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الأول
نصوص دعوة الرسل إلى التقوى
نظرة إجمالية

لما كانت التقوى بهذه الأهمية، وتحمل تلك المعانى التي رأيناها في الفصلين السابقين، لا جرم كانت أول دعوة الرسل لأقوامهم، وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك، وتبين أيضاً الحجج التي ساقها الرسل ليحملوا الناس على تقوى الله تعالى.

ونبدأ بإحصاء هذه الآيات ثم بعد ذلك يكون النظر في تفسيرها كلٌّ في مطلبه، وها هى ذى:

١. ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].

٢. ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح: ١-٣].

٣. ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

٤. ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

٥. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٣].

٦. ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

٧. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٨٠﴾ ﴾ وهى مكررة في سورة الشعراء بنفس اللفظ عند

ذكر دعوة الرسل لأقوامهم، ففى قصة نوح قوله تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١١٠].

أما في قصة هود فقال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٢].

وفى قصة ثمود:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٠].

وفى قصة إلياس، وقصة لوط، وقصة شعيب كذلك، مع بعض الاختلافات التي سنذكرها - إن شاء الله تعالى - عند دراسة النصوص ومقارنتها.

١. ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٣].

٢. ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٣. ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

٤. ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٥. ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٦. ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

٧. ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٨].

٨. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

٩. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج: ١].

١٠. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يس: ٤٥].

١١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان: ٣٣].

١٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

١٣. ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ

ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

١٤. ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

١٥. ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٦].

١٦. ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥].

أرسل الحق سبحانه وتعالى رسله وأنبيائه لدعوة الناس إلى تقواه ﷻ، أى ليجعلوا بينهم وبين عقاب ربهم وعذابه وقاية تقيهم منه، وأول ما يقى الناس ذلك هو توحيده والإيمان به -جل شأنه.

وبالتأمل في النصوص السابقة وتفحصها ومقارنة بعضها ببعض، انتهيت إلى الملاحظات التالية:

التقوى هى أول ما دعا الرسل أقوامهم إليه، وهى كما ذكر كل من رأينا من المفسرين إما توحيد الله تعالى والإيمان به، أو هى الخوف الباعث عليالإيمان والتوحيد وطاعة الرسل. وقد ذهب إلى المعنى الأول - وهو كون التقوى هنا توحيد الله تعالى - الفخر الرازى وغيره،كما أشرنا إلى كلامه في تعريف التقوى.[1] وهذا الوجه هو ما أميل إليه للآتى:

أولاً: أن الرسل أول ما دعوا أقوامهم، دعوهم إلى توحيد الله - جل شأنه - فقال تعالى:- ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، فكانت

(1) انظر فصل «مفهوم التقوى».

التقوى كذلك هى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، إذ هى أول ما دعا الرسل أقوامهم إليه أيضاً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢]، أى: أنذروا أنه لا إله غيره فوحدوه وأخلصوا له الدين، والخطاب موجهٌ للرسل جميعاً.

ثانياً: جاء في رد قوم نوحٍ عليه السلام عليه، لما دعاهم إلى تقوى الله تعالى بقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٨]، قالوا في ردهم عليه: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، فكان دليلاً على أن أمرهم بالتقوى أمر بالإيمان، لما في ردهم من هذا المعنى.

ثالثاً: جعل القرآن الكريم التقوى في مقابل الكفر في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

تدرج الرسل في دعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، من الحض عليها بالرفق، إلى الأمر بها، يتضح ذلك في قول الرسل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، على معنى الترفق بهم والحث لهم، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالتقوى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، مما ينير طريق الدعاة إلى الله بسلوك الأنبياء في الدعوة. هذا على اعتبار أن «ألا» هنا للتحضيض، أما إذا اعتبرناها مكونة من همزة الاستفهام ولا النافية، فإنها تحتمل الإنكار، والسياق هو الذي يبين ذلك.

ورأينا الرسل كذلك وهم يسلكون هذا السبيل، يؤكدون للناس تجردهم عن المصالح والمطامع والحظوظ، فلا يبتغون من وراء دعوتهم مالاً ولا أجراً، إنما أجرهم في ذلك كله على الله تعالى، وهذا يبين للدعاه طريق الإخلاص في الدعوة، وابتغاء الدار الأخرة، وتنكب طريق المنافع الذي يوضح بجلاء أنهم ليسوا دعاة إلى الله تعالى، بل هم لصوص يقطعون الطريق على السائرين إلى الله

تعالى، محصورين في شهواتهم الضيقة الزائلة، إنهم دعاة الشيطان وليسوا من التقوى في شيء. إن للدعاة المتقين شأناً آخر من التجرد عن التكسب بالدين، والمتاجرة به، بل على العكس، إنهم يبذلون وقتهم وجهدهم وأموالهم، بل أنفسهم، عسى أن يقبلهم ربهم ويجزيهم الجزاء الأوفى في الأولى والأخرة.

أن الأمر بالتقوى في دعوة الرسل الناس إلى ربهم ﷻ متكرر، مما يفيد دوام واستمرار الدعوة إليه، مع عدم اليأس أو القنوط من استجابتهم، حتى ولو ظهر الإعراض والعناد إلى أقصى درجة، وقد ظهر ذلك جليا في قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، في سورة الأعراف، حيث يئس بعض أتباع الرسل من دعوة العصاة المخالفين لأمر الله، يقول القرآن الكريم مصوراً هذا المشهد في صيغة حوار: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وكانت إجابة المتمسكين بالدعوة القائمين عليها: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، أى: ذلك اعتذار إلى الله، ونرجو أن يثوبوا إلى تقوى الله – سبحانه وتعالى.

أن التكرار في الآيات التي أشرنا إليها، خاصةً في سورة الشعراء التي يظهر فيها جلياً تكرار الأمر بالتقوى، ليس تكراراً محضاً، وهو من دقة الأسلوب القرآنى.حيث ذكر جمع من المفسرين أن الأمر الأول بالتقوى معلل بكون الرسول أميناً فيما يبلغ عن ربه، أميناً في نصحهم وإرادة الخير لهم، أميناً في تحذيرهم من مغبة عنادهم وكفرهم، وأن ذلك سيكون سبب هلاكهم. ثم جاء الأمر مرةً ثانية بتقوى الله تعالى لعلة أخرى، وهى نفى المصلحة في دعوتهم، بل أجره على رب العالمين. فاتضح بذلك أن التكرار ليس تكراراً محضاً، لأنه معلل كما رأينا بعلتين مختلفتين.

وإذا كان الأمر بالتقوى أمراً بالإيمان والتوحيد – كما أشرنا – فإن بعض آيات التقوى جمعت بين دعوة الرسل إلى توحيد الله ودعوتهم إلى تقواه في ذات

السياق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾ [نوح: ١-٣]، مما يعد استخداماً للتقوى في بقية أو في بعض معانيها الأخرى وسيأتى شرح ذلك كله - إن شاء الله، وكقول إبراهيم عليه السلام :﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

تنوع التعبير القرآنى لحمل الناس على تقوى الله - جل وعلا:

فمرة بالتخويف الشديد الذي من شأنه دفع الناس إلى التقوى كقولة تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ ﴾ [الحج: ١]. فمتصور هذا الهول أو شئ منه وعظمه وخطره، وأنه لا نجاة له منه إلا بتقوى الله يجعله يسارع إليها، خاصة وهو يعلم أن مرده إلى الله وأن الدنيا زائلة، وكل ما حصل فيها لا يمنع عنه ولا يدفع موتاً ولا حساباً ولا عقاباً. ومن هذه الأيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٣٣ ﴾ [لقمان: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٥١ ﴾ [الأنعام: ٥١].

ومرة أخرى بالترغيب والوعد بالرحمة، كقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٥٥ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ومنها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٨ ﴾ [الحديد: ٢٦].

ومرة بذكر آياته في الآفاق وفى أنفسهم التي تدل على وحدانيته وعظمته الحاملة على توحيده وإفراده بالعبادة والتقوى وحده ﷻ، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

ومرة بتقريره سبحانه لهم أنه الخالق الرازق المحيى المميت، المدبر الذي بيده الأمر، وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]. فمن يستحق أن يتقى ويوحد ويعبد؟ من كان ذلك كله بيده هو الذي يستحق أن يعبد فلا يشرك به، وأن يتقى فلا يخشى غيره.

ومرة بتعداد النعم عليهم التي لو تفكروا فيها، وأن الله الواهب لها بغير استحقاق منهم، ولا بسبق سبب لكان دافعاً لهم إلى التقوى، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٤].

بين لهم أنه أنزل القرآن الكريم جلياً واضحاً ميسراً ليتقوا الله، قال عز من قائل: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر: ٢٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣]. فكان القرآن الكريم الآيه العظمى والمعجزة الكبرى التي تحمل على تقوى الله – سبحانه.

والآن نشرع في دراسة النصوص القرآنية التي تؤيد ما سبق لتكتمل الصورة بالبرهان الشرعى والدليل العقلى. ونشير في هذا المطلب إلى هذه الآية وبقية الآيات تأتى في مواضعها، وهى قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ

عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل: ٢].

هذه الآية الكريمة هى ملخص الرسالة حيث ينـزل جبريل بالوحى من الله تعالى على من يشاء من عباده ليُعْلِموا الناس بأن الله واحد ليعبدوه ويتقوه. فالآية على وجازتها قد جمعت أركان الرسالة، فالمُرسِل هو الله تعالى، أرسل جبريل عليه السلام بالمُرسَل به وهو الوحى إلى المُرسَل وهو الرسول ليبلغ رسالة الله - جل وعلا - إلى المُرسَل إليهم، وهم الركن الرابع وهم الناس الذين أُرسل إليهم الرسول.

وكانت الآية الكريمة في غاية الدقة إذ بينت قضية النبوة أتم بيان، فقد وضحت أن الله -جل وعلا- برحمته أرسل للناس رسلاً ليهدوهم إلى تقوى الله حتى يسعدوا في الآخرة والأولى. فكان في الآية الرد على كل الطوائف التي تنكر الرسالة، كهؤلاء الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، أو هؤلاء البراهمة الذين اكتفوا بالعقل، أو غلاة الصوفية الذين يدعون أن الرسل حجاب بين الله وبين الناس، وغير هؤلاء من طوائف الضلال، كذلك أشارت الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة وهى أن الوحى هو الروح - بهذا اللفظ الموحى - لتوقف حياة الناس الحقيقية عليه لأنهم بغيره أموات، لذلك قال فيه الحق - سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، أو لأنه - أى الوحى - بالنسبة للدين كالروح للبدن، فلا دين إذاً بغير وحى.

وبينت الآية كذلك المذهب الحق في موضوع النبوة، وأنها اصطفاء وعطاء من الله - جل في علاه، لا تتحصل برياضة النفس وتهذيبها، أو بإشراق الروح وغيره، بل كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهى اجتباء محض من الله تعالى. ومن ثم شدد المولى جل

وعز النكير على من ادعى شيئاً من ذلك، وتوعده بأشد العذاب ووصمة بأسوأ الصفات فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣].

ثم جلت الآية زبدة الرسالة وهدفها الأسمى: ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]؛ أن توحيد الله وتقواه – جل وعلا – مقصد الرسالات، أى أرسل الحق سبحانه رسله وأنزل عليهم كتبه ليُعلموا الناس أن إلههم واحد يجب أن يفردوه هو بالعبادة، وأن يخلعوا ما دونه من الأنداد، وأن ذلك سبيل سعادتهم أفراداً وجماعات، في الدنيا والآخرة فكانت الآية الكريمة كما رأينا محيطة بالموضوع كله على اختصارها ودقتها، مع التوضيح والرد على كل مخالف. وبينت في نفس الوقت موضوعنا الأساسى من سياقها وهو تقوى الله وأنها دعوة الرسل جميعاً، وإن زاد بعض أهل العلم على ذلك أن الآية أفادت أعلى مراتب الكمال الإنسانى،وهو أن يتحقق المرء بالقوة العلمية والعملية ،فالقوة العلمية في معرفة ربه ومعبوده وخالقه ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾، يترتب على هذه المعرفة طمأنينة النفس وتحقيق سلامها ورضاها واتزانها الروحى والمادى،مع إبعاد شبح القلق والاضطراب في عدم معرفتها بربها – جل وعلا.

وأما الكمال الثانى فهو بتحقيق القوة العملية وهى تقوى الله عز وجل ويتحقق بها نجاتها ورفعتها. يقول العلامة الألوسى وهو تابع في ذلك للإمام الفخر الرازى في قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾

وهو مشتمل على التوحيد الذي هو منتهى القوة العلمية والأمر بالتقوى

التي هى أقصى كمال القوة العملية، فإن النفوس البشرية لها نسبة إلى عالم الغيب تستعد بها لقبول الصور والتحلى بالمعارف والإدراكات من ذلك العالم، ونسبة إلى عالم الشهادة تستعد بها لأن تتصرف في أجسام هذا العالم ويسمى استعدادها الحاصل لها باعتبار النسبة الأولى.[١]

(١) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ٤٠). والعلامة الألوسى «روح البيان»، مجلد٨، (١٤/ ١٤١).

obeikandl.com

المطلب الثانى
التكرار في الأمر بالتقوى
إشاراته وحكمه

رأينا أن دعوة الرسل أقوامهم كانت إلى تقوى الله تعالى، والمتأمل في النصوص يجد تكرار دعوة الرسل واستمرارها والمداومة عليها. وأقصد بالتكرار هنا أمرين:

الأول: تكرار ألفاظ الرسل في دعوة أقوامهم إلى تقوى الله تعالى.

الثانى: مداومة الرسل - عليهم السلام - في دعوة أقوامهم، وثباتهم على ذلك، فينبغى النظر في الأمرين شرحاً ومثلاً.

ونبدأ بالأمر الأول، وهو تكرر ألفاظ الرسل في دعوتهم إلى التقوى وهل كان تكراراً محضاً أم لا؟ ومثال ذلك نوح عليه السلام، فقد ذكر القرآن الكريم عنه قوله لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧-١١٠]، فكرر عليه السلام أمره لهم بتقوى الله تعالى: مصدراً إياه «بإن» التي تفيد التأكيد مع عدم سبق إنكارهم لأمانته لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة فإن الأمانة دليل الصدق.(١)

وفى الإشارة إلى استدلال نوح بأمانته تعريض بالمشركين الذين كانوا يدعون النبى ﷺ بالأمين قبل البعثة ثم كذبوه بعد ذلك، كما قال هرقل لأبى سفيان: هل جربتم عليه كذباً؟ أى النبى ﷺ فقال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. فقال له هرقل بعد ذلك: فقد علمت أنه ما كان ليترك الكذب

---

(1) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٥٨).

على الناس ويكذب على الله.[1]

ثم جاء قول نوح عليه السلام: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فبعد طول الدعوة واستمراره عليها بالرفق واللين والأمانة والصدق، لم يكن بد من الانتقال إلى الأمر بتقوى الله سبحانه وطاعته عليه السلام أمراً جازماً يحمل في طياته التخويف والتحذير من عقاب الله جل وعلا، ويحمل في نفس الوقت تأكيد دعوته السابقة لتقوى الله تعالى، وعلى شاكلته جاء قوله تعالى: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فالاستفهام هنا للإنكار، فبعد أن ترفّق بهم ثم رأى منهم ما رأى من الإعراض والإيذاء بعد طول الأناة عليهم، انتقل إلى الإنكار عليهم مفرعاً ذلك على قوله: ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ فينكر عليهم شركهم واتخاذهم آلهة أخرى مع الله تعالى، وعدم اتقائهم وخوفهم من ربهم وعقابه. هكذا تتدرج الدعوة إلى تقوى الله تعالى.

ثم بين عليه السلام علة أمره هذه المرة، وهي تنزهه عن المطامع الدنيوية والحظوظ النفسية في الدعوة إلى تقوى الله، وذلك من قوله: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، أي لا أسألكم عليه أجراً أياً كان مالاً أو غيره، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي ﴾ [هود: ٢٩]، فرأينا الأمر بالتقوى معللاً بعلتين: الأمانة وعدم الطمع وطلب الأجر وكلتاهما كافية في طلب تقوى الله تعالى فكيف إذا اجتمعا؟ فلا تكرار إذاً، لأن المعنى مختلف، يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره الآية: «وقد يقول الرجل لغيره: ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً؟ ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً؟»[2]، وهكذا كان كافة

---

(1) رواه البخاري (٧)، وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، (١/ ٣١-٤٥).

(2) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٢/ ١٥١). و العلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٧٢).

الرسل وأتباعهم يرجون الأجر والثواب من الله تعالى في الآخرة، حيث كانوا متجردين له، حاسمين طمع أنفسهم أو تطلعها لزائل من زوائل الدنيا وحطامها الفانى، وهذا ما يبينه الأمر بالتقوى نفسه، إذ كيف يأمر الواحد منهم بتقوى الله وهو يطلب أجراً ومالاً ومتاعاً؟ هذا منافٍ لسير المتقين وأخلاق الصالحين وهو بأخلاق النفعيين والمتاجرين بالدين ألصق وأولى.

والأمر الثانى: وهو تكرر الدعوة من الأنبياء – عليهم السلام – لأقوامهم وثباتهم على ذلك، ونضرب مثلاً لذلك أيضاً نوحاً عليه السلام، ولكن بذكر آيات أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ ﴾ [نوح: ١]، فقام عليه السلام من فوره يقول: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ ﴾ [نوح: ٢-٣].

ثم بعد دعوة طويلة لهم قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴾ فجعل دعوته عليه السلام في كل الأزمان، فعبر بالليل وبالنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد كل وقت يتوسم فيه أنه أقرب إلى فهم دعوته من أوقات النشاط بالنهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهى بالليل.

فإذا كان ما سبق هو زمن دعوتهم، فإنه ذكر أيضاً بأن دعوته كانت مع ذلك مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار فقال: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ ﴾ [نوح: ٨-٩] وقد عبر بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ التي تفيد في عطفها للجمل أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها، لأن اختلاف كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من زمنها، فدعاهم ﴿ جِهَارٗا ﴾ أى علناً، ثم أضاف الإسرار إليه ليكون أقوى في الدعوة وأشد، والمعنى أنه توخى ما يظنه أقرب لاستجابتهم وأدخل لقلوبهم فجهر حين يكون الجهر أجدى مثل مجامع العامة،وأسر للذين يظن أنهم يستمعون إليه إذ كانوا أبعد عن عيون قومهم، فكانت دعوته كذلك موزعة على مختلف الناس، فها هى

ذى دعوته عليه السلام، وهى على الحقيقة دعوة كافة الأنبياء جمعت مختلف الأزمنة، وجميع الهيئات، وكافة الفئات، وأخذ يدعو: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤].

أما متى توقف نوح عن الدعوة فذلك حين أخبره ربه - سبحانه - بقوله: ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦].

وأمَّا المثل الثانى فهو قصة القرية التي كانت حاضرة البحر:

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

ونذكر ملخصاً سريعاً لقصة هذه القرية، ثم نبين مقصدنا الأصلى فيها، فنقول: أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل اليهود في أيامه عن أهل هذه القرية الذين عتوا عن أمر الله تعالى، ولم يعظموا السبت الذي وصاهم به، وماذا كان جزاؤهم عندما فسقوا عن شرع الله ولم يبالوا بالموعظة ولم يتقوا الله، وقد أمره الله تعالى أن يسألهم لا سؤال استفسار، فهو قد علم علمها من الله جل وعلا، بل سؤال تقرير لتقريعهم وتوبيخهم، وعد سوابق عصيانهم وبيان أن عصيانهم إياه ﷺ ليس بدعاً بل شنشنة قديمة منهم.

كان هذا حال الفريق الأول من هذه القرية، وهى الفرقة التي كانت سادرة في غيها وغلوائها، لا ترعوى عن ضلالتها، ولا ترقب الله في أعمالها. أما الفريق

الثانى، فهم الأمة الصالحة التي قامت بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفرقة أيست من اتعاظ الموعوظين، وغلب على ظنها أن قد حقت عليهم كلمة العذاب، لتحققهم بالحال التي أخبر الله تعالى بأنه يهلك أو يعذب من تحققت فيه، فتركت الموعظة والأمر والنهى عن المنكر بما حكى الله عنهم بقوله: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾، أى ما العلة في وعظكم لهؤلاء؟ وهو إنكار في معنى النفى، يفيد انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يحصلها وعظهم، وذلك يفضى إلى اليأس من حصول اتعاظهم.(١)

ونلاحظ ابتداءً أن الصالحين المنكرين الذين يئسوا من الوعظ، قالوا لهؤلاء الصالحين الدائبين في الوعظ: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ هكذا بصيغة المضارع المفيد للاستمرار، أى لم تستمرون في وعظكم؟ مكررين له؟ ثابتين عليه؟ وهو ما يفيد أن تلك الأمة الصالحة ثابتة على كلفة الوعظ، لم تيأس، ولم يخالطها الإحباط، وهو ما ينبغى للدعاة إلى الله أن يتعلموه.

كان ردهم أنهم مستمرون في وعظهم لعلتين:

الأولى: ليكون لهم عذر عند الله ﷻ إذا سألهم عن القيام بحق الدعوة.

والثانية – وهو الهدف من دعوة الرسل – هى قولهم: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، أى لما عسى أن يحصل من تقوى الموعوظين بزيادة الموعظة والاستمرار عليها، أى أن الرسل وأتباعهم لا ينفكون يدعون إلى تقوى الله تعالى مهما بدا من إعراض المدعوين إصماماً لآذانهم وإغلاقاً لقلوبهم، وإيذاءً لرسلهم وأتباع رسلهم، وأن ذلك لا يزيدهم إلا إصراراً على الموعظة والدعوة، وثباتاً عليها، رجاء أن يتقوا الله تعالى.

وهو ما يبين لنا أسرار تكرار الدعوة والحكمة من الاستمرار عليها.

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ١٥١).

المطلب الثالث
تنوع أساليب دعوة الرسل إلى الله تعالى

تنوعت الأساليب التي ذكرها القرآن الكريم، والتي تحض الناس على تقوى الله تعالى، حيث نبه الرسل الكرام أقوامهم إليها، أو دعوهم للتفكر فيها، حتى لا يترك المولى - جل وعلا - سبيلاً يصل به الناس إلى تقوى الله إلا وبصرهم بها، ولفت عقولهم وأبصارهم وأسماعهم إليها.

أول هذه الأساليب:

١ - التخويف الشديد الذي من شأنه أن يدفع الناس إلى تقوى الله تعالى:

من ذلك قوله -جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ [الحج: ١-٢].

أمر - سبحانه وتعالى - الناس جميعاً من لدن نزول هذه الآية إلى يوم القيامة بتقواه - جل وعلا، ثم علل سبحانه - وجوب التقوى عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به.[1]

فمتصور هذا الخطر العظيم يسارع - لا محالة - إلى إنقاذ نفسه منه، خاصة إذا تيقن بحصوله ووقوعه التيقن المفيد للعمل، الباعث على التقوى، ولا شك أن الله - وجل وعلا - لم يذكر ذلك إلا وله حكمة فيه، يتنبه لها أصحاب العقول

---

(1) جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٢٤). و أبو البركات النسفى «مدارك التنـزيل»، (٣/ ٧١).

الواعية المدركة المقدرة لعاقبتها، فيكون دافعاً لها إلى اتقاء هذا الهول الفظيع، لأن المرء العاقل يدفع عن نفسه الشر والسوء بكل وسيلة ممكنة، فإذا ما تحقق الإنسان أن وسيلته في ذلك تقوى الله تعالى، فمن العبث ألا يدفع بها. ومن قلة الفهم وضعف العقل أن ينشغل عنها، وهو يعلم بقدوم الهول الذي لا دافع له ولا مانع منه بغير ذلك.

وقد جيء بلفظ «شيء» للتهويل الشديد بتوغله في التنكير، أى أن زلزلة الساعة لا يعرف كنهها إلا بأنها شيء عظيم.(١)

ثم فصل بعد ذلك هذا الهول، فذكر منه ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿ تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ ﴾ أى تذهلها الزلزلة. والذهول: الذهاب عن الأمر مع دهشة. والمرضعة: هى التي في حالة الإرضاع، ملقمة ثديها للرضيع، من هول ما فوجئت به ذهلت عن رضيعها ونزعت ثديها لما يلحقها من الفزع الشديد.

الثانى: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا ﴾ فمن شدة الهول والكرب العظيم تسقط الحامل حملها لتمام أو غير تمام.

الثالث: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ قد ذهبت عقولهم، وترنحت أجسامهم، يتماوجون من غير خمر، ولكن ما أرهقهم من الهول أذهب عقولهم، وطير تمييزهم.(٢)

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور«التحرير والتنوير»، (١٧/ ١٨٧)، وقال: وهو من المواضع التي يحسن فيها لفظ «شيء» كما ذكر عبد القادر الجرجانى في «دلائل الإعجاز».

(2) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١١/ ٢٢٩-٣٠٠). والساعة: علم في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروى، وإضافة الزلزلة في الدنيا أو في وقت الحشر، وحمل الزلزلة على الحقيقة هو الظاهر، وهى حاصلة عند إشراف العالم الدنيوى على الخراب، ويجوز أن تكون الزلزلة مجازاً عن الأهوال

وقد رأينا أن الأمر بالتقوى معلل بأن زلزلة الساعة شئ عظيم، وهو يقتضى أن لزلزلة الساعة أثراً في الأمر بالتقوى غير التخويف الشديد الحامل على التقوى، وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ فإذا كان وقت حصول الجزاء فيه هذا الهول المرعب والفزع العظيم، فلا شك كان الاتصاف بالتقوى واجباً لاتقاء ذلك كله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب، في وصف تفصيل ذلك الهول:

«فإذا هو أشد رهبة من التهويل، إذ هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعى، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها، وبالناس سكارى، وما هم بسكارى، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة، وفى خطواتهم المترنحة، مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، بينما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول حى، لا يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية، في المرضعات الذاهلات عما أرضعن، وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعى. إنه مطلع عنيف مرهوب، تتزلزل له القلوب».(١)

والآية الثانية من آيات التخويف التي ينبغى أن ننظر في معناها كذلك - لنأخذ العبرة والعظة ونتمسك بأهداب التقوى - هى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ

=

والمفزعات التي تحصل يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾. وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (١٧/ ١٨٧).

(1) الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٤/ ٢٤٠٨).

جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ [لقمان: ٣٣].

فهذا أمر بالتقوى، وتذكير باليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، ودعوة بالتخويف مما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيباً، ليكون تذكير الناس بتلك الأفزاع والكرب حاملاً لهم حملاً على تقوى الله تعالى، وإعداد الزاد - زاد التقوى - لهذا الموقف الذي لاينفع فيه أحد أحداً: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣]. فلا ينفع كل أحد إلا ما قدم من عمل صالح تثقل به موازينه، وتبيض به صحيفته.

وإذا كان الله - جل وعلا - قد ذكر في الآية السابقة في سورة الحج التخويف بذكر زلزلة الساعة وشدتها، فقد أضاف القرآن الكريم هنا مشهداً آخر من مشاهد الهول والرعب والخوف، وهو مشهد فرار الولد من الوالد والوالد من الولد، كل يقول: نفسي نفسي. فذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد، ليستدل بهما على غيرهما، فإذا كان الوالد الشفوق لا يجزى عن ولده البار، ولا الولد البار يجزى عن الوالد الشفوق، فما بالك ببقية الأرحام، فضلاًعن الأصدقاء والخلان؟[1]

يقول الأستاذ/ سيد قطب:

«إن الهول هنا هول نفسي، يقاس بمداه في المشاعر والقلوب. وما تتقطع أواصر القربى والدم، ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد، وبين المولود والوالد، وما يستقل كل بشأنه، فلا يجزى أحدٌ عن أحد، ولا ينفع أحداً إلا عمله وكسبه، ما يكون هذا كله إلا لهول لا نظير له في مألوف الناس،

(1) على اختلاف القراءات في قوله: «يجزى».

فالدعوة هنا إلى تقوى الله تجئ في موضعها الذي فيه تستجاب، وقضية الآخرة تعرض في ظلال هذا الهول الغامر فتستمع لها القلوب».[1]

وبالنظر في تركيب الآية نلاحظ:

أولاً: تقدم الوالد على الولد في قوله: ﴿ لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾، لأن الوالد أشد شفقة على ابنه، فلا يجد له مخلصاً من سوءٍ إلا فعله.

وقد نزلت الآية في مكة وأهلها - يومئذ - خليط من المسلمين والمشركين، وربما كان الأب مسلماً والابن كافراً، وربما كان العكس. وقد يتوهم بعض الكافرين إذا داخلهم الظن في مصيرهم بعد الموت أن قد يدفع عنهم أبناؤهم المسلمون حميةً كحمية الدنيا وأنفتها، وكذلك قد يتوهم أن أحد الفريقين أرجى في المقصود. ولكن جملة: ﴿ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ أكدت بطرق من التوكيد لم تشتمل على مثلها جملة: ﴿ لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ فقد جاءت جملة إسمية، ووسط فيها ضمير الفصل، وانصب النفى فيها على الجنس. كل ذلك مؤكدات للمبالغة في تحقيق عدم جَزْءِ هذا الفريق المولود عن الآخر، إذ كان معظم المؤمنين من الأبناء والشباب، وكان آباؤهم حينئذ كفرة على الشرك، كأبى قحافة والد أبى بكر ﷺ، وأبى طالب والد علىﷺ، وأم سعد بن أبى وقاص ﷺ، وغيرهم. فأريد حسمهم أطماع آبائهم وما عسى أن يكون من أطماعهم في أن ينفعوا آباءهم في الآخرة.

ثانيا: وأما إيثار لفظ «مولود» على «ولد» فلأن لفظ «مولود» توحى بأنه ولده من صلبه، إذ إن لفظ «ولد» أعم منها حيث تطلق على ولد الولد مع ما توحى به لفظة «مولود» من تجشم مشقة التربية التي تستدعى التحنن

---

(1) انظر الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٥/ ٢٧٩٨).

والتعطف[1]. ومع ذلك ليس بمغنٍ ولا بدافعٍ عن أبيه شيئاً، حسماً لأى طمع في ذلك، ولفتاً للأنظار مرة أخرى إلى كون التقوى هى وحدها سبب النجاة. قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ونختم بما ذكر الله - جل وعلا - في هذا المعنى مضافاً إلى ما سبق، وذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١]. حيث أمر المولى - جل ذكره - نبيه ﷺ بإنذار الذين يخافون الحشر، لا ولى لهم ساعتئذٍ من دون الله ولا شفيع، بإنذارهم بالقرآن، وتخويفهم رجاء أن يتقوا الله تعالى، فيسارعوا إلى الطاعة وينتهوا عن المعصية، فبينت الآية الكريمة أن الإنذار والتخويف من الأمور التي كثيراً ما تحصل تقوى الله تعالى، إذ تتأثر القلوب بالوعظ، فترق وتخشع لأمر الله وما نزل من الحق، فتنقاد الجوارح لما يحب الله تعالى، وتتجنب ما يغضبه. ومن ثم أُمِرَ النبى ﷺ والمؤمنون بالقيام بهذا الأمر.

وبالنظر في تحليل الآية:

قوله: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ﴾ أى: أعلمهم مع التخويف. ﴿ بِهِ ﴾ أى: بما يوحى إليك، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]. ثم خص الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، مع أنه ﷺ مأمور بإنذار الخلائق كلهم، لأن خوف الحشر مظنة الإيمان، وكأنه قيل: الكفرة المعرضون دعهم ورأيهم وأنذر بالقرآن من يرجى إيمانه.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢١/ ١٩٤). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٢١٧). الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٢/ ٥٣٠-٥٣١). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٢، (٢١/ ١٦٤).

واختلف أهل العلم في تعريف هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فذهب بعضهم إلى أنهم المؤمنون، وعرفوا بالموصول لما تدل عليه الصلة من المدح، لأن الإنذار لهم نافع، خلافاً لحال المنكرين للبعث فإنهم لا يخافونه، فضلاً عن الاحتياج إلى شفعاء. وذهب بعضهم إلى أنهم الكفرة. وذهب قومٌ آخرون إلى أنهم عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودى ونصرانى، إلا أنهم قيدوا المسلمين بكونهم مفرطين فينذروا رجاء التقوى. ورجح آخرون أنهم المجوزون للحشر من غير المسلمين، لأن المسلمين على أى حال فيهم شىء من التقوى.(١)

وهذه المعانى توضح للداعين إلى الله تعالى الطريق الذي ينبغى أن يسلكوه في حمل الناس على تقوى الله، والجهد الذي يجب عليهم بذله مع من يرجى إيمانه ممن يخاف الحشر، لا مع غيره.

أما قوله: ﴿ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ فهو تعليل للأمر بالإنذار، أى رجاء أن يتقوا ربهم - سبحانه - بتحقيق أسباب التقوى، وأولها: ترك الشرك والكفر، ثم الإتيان بالطاعات، وترك المعاصى على ما ذكرنا في معنى التقوى.

٣- الترغيب والوعد بالرحمة :

أمر الله تعالى الرسل بإنذار أقوامهم وتخويفهم رجاء أن يتقوا، لكن إدامة التخويف لهم قد يعودهم عليه حتى لا يكون سبباً لاستجابتهم، بل - على العكس - تكون النفوس قد تبلد إحساسها، لأنها قد تعودت على سماع ذلك حتى فقدت التأثر به، والانفعال معه.

---

(1) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ٥٢٠). الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٦/ ٣٢١). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧/ ٢٤٤). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٥٤)، وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ١٦).

فاقتضت حكمته تعالى أن بين لهم الخير، وبشرهم به، ووعدهم بالرحمة، وحببها إليهم، مع ما يستلزم ذلك من إحسانه وفضله، ليكون ذلك كله مدعاةً لهم ليتقوا الله تعالى، ويرجوا اليوم الآخر.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

أى: وهذا الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه - وهو القرآن الكريم - كتاب عظيم الشأن، لا يقدر قدره، أنزلناه على محمد ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام مشتملاً على فوائد الدين والدنيا، وهو كتاب مبارك كثير الخير.(١) ومن كانت هذه صفته من كونه منـزلاً من الله بالخير والبركة للناس في دنياهم وأخراهم يجب اتباعه، حيث الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

فلاحظنا أن الله - جل وعلا - قد نعت كتابه بما يكون سبباً في محبة الناس إياه وإقبالهم عليه لتصلح عليه أمورهم كلها، إذ كل أحد يحب الخير لنفسه - لاشك، فكان هذا من باب ترغيبهم في الإيمان والطاعة.

ثم بين لهم الجزاء بعد ذلك، وهو قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، ليكون هذا الرجاء في رحمة الله تعالى عوناً لهم، وشارحاً صدورهم لتقوى الله.

وقدم المولى - سبحانه - الأمر باتباعه، والأمر بالتقوى لتكون الرحمة من الله جزاء ذلك فقال: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ونلاحظ أنه - سبحانه - قال: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾، أى القرآن الكريم، أى اتبعوا أوامره والتزموا بما فيه، ثم قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ بغير عود الضمير إليه، حيث فهم منها من قرأنا له من المفسرين: واتقوا مخالفته ونواهيه، وإن كان حذف الضمير،

---

(١) انظر أبا السعود، «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٢٢٣). والألوسى «روح المعانى»، (٨/ ٩٠).

وحذف المفعول – كما هى عادة القرآن الكريم في كثير من الأحيان – لتشمل كل ما يصلح للتقوى، لأن اتباع القرآن المطلوب في الآية كان في أن يتبعه المرء فيما جاء به، من التزام أمره واجتناب نهيه، والاتعاظ بمواعظه، والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه...، وغير ذلك. فكان الأمر بالتقوى – زائداً على هذه المعانى – ليشمل كل معانى التقوى الملائمة لهذا السياق من الخوف من الله واليوم الآخر، والخوف من النار، وليشمل كذلك الزائد على الاتباع، من الالتزام بالمستحبات، وترك المكروهات، واجتناب الشبهات، وغيرها مما قدمنا في معنى التقوى، وما يحصل به المؤمن رحمة الله الموعودة في الآية.

وأشارت الآية الكريمة بهذه اللفظة الحانية – لفظة «الرحمة» – إلى ما يشتاق إليه المرء في الدنيا من العيشة الحسنة، والحياة المطمئنة، ورضا النفس وسلامها، وتواد الناس وتعاطفهم، وما به يرتفع نكد الدنيا وأزماتها، واضطراباتها النفسية والاجتماعية، وعدم الأمن و الطمأنينة فيها.

لا جرم كان الوعد بالرحمة العنصر الثانى الذي يحمل به الرسل أقوامهم على تقوى الله تعالى، وكان لزاماً حينئذ للدعاة إلى الله أن يخلطوا الرهبة بالرغبة ليكون أعون على تحصيل مقصود الدعوة من تقوى الله، إذ هو الهدف الأسمى – كما ذكرنا – من دعوة الرسل.

وإذا كان ذلك هو ما ذكر الله – جل وعلا – عن الرسول الخاتم ﷺ، فقد جاء مثله عن أول[1] من أرسله المولى للدعوة إليه نوح عليه السلام حيث قال سبحانه على لسانه– عليه وعلى نبينا الصلاة السلام:﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦٣].

---

(١) ورد ذلك في حديث الشفاعة، انظر العسقلانى «فتح البارى» (٤٧١٢). ورواه مسلم (١٩٤).

بدأت هذه الآية الكريمة باستفهام إنكارى من نوح عليه السلام يجابه به قومه الذين استبعدوا وأحالوا أن يرسل المولى بشراً لينذر عباده، ويهديهم إلى طريق التوحيد ونبذ الشرك، وطاعة الله وترك معصيته، بقولهم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لأنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] بعد قولهم: ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ في نفس الآية. فكان هذا الإنكار منه عليه السلام فضحاً لشبهتهم، إذ إن الذي جعلوه مستبعداً ومستحيلاً هو نفسه موجب القبول والإيمان، لأن كون المذكر رجلاً منهم أقرب إلى القبول من كونه من جنس آخر.

ونلاحظ أن الجمل رتبت على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإن الإنذار مقدم لأنه حمل على الإقلاع عما هم فيه من الشرك والوثنية، ثم تحصل التقوى، وهى العمل الصالح، فترجى منه الرحمة.(١)

يقول صديق خان في «فتح البيان»:

«وهذا الترتيب في آية من الحسن، لأن المقصود من الإرسال الإنذار، ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوز بالرحمة».(٢)

وغايتنا من الكلام أن الرسل جمعوا إلى الإنذار - الذي أشرنا إليه من قبل - الوعد بالرحمة، لتكون حافزاً للناس على تقوى الله تعالى، والمسارعة إلى إجابة دعوة الرسل، لذلك كان معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى: لتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم لله ﷻ ، مع ما في هذا الأسلوب من الشفقة عليهم، ودعوتهم بكل سبيل إلى تقوى الله، كأنه يتحنن إليهم برحمة الله المرجوة ليتقوه -

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ١٩٦).

(2) صديق حسن خان «فتح البيان»، (٣/ ٣٥٤). وكذلك أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٢٥٩).

سبحانه، فيفوزوا بتلك الرحمة.

وللعلامة أبى السعود رأى حسن في مجيء حرف الترجى «لعل» في هذه الآية، حيث يقول:

«وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة الطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة، بل هى منوطة بفضل الله تعالى، وأن المتقى ينبغى ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله ﷻ».(١)

وتلك آية أخرى من آيات الترغيب ليتقوا الله تعالى، وهى قوله - سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

رأينا في الآيتين من قبل كيف رغب الرسل أقوامهم في تقوى الله تعالى بوعدهم بتنـزل الرحمة عليهم. أما هذه الآية الكريمة فقد وعدت المؤمنين إيماناً صحيحاً من أهل الكتاب إن هم اتقوا ربهم - جل وعلا - وآمنوا برسوله محمد ﷺ بنصيبين من رحمة الله جزاء إيمانهم بالرسل من قبل وإيمانهم كذلك برسول الله ﷺ، وحثاً لهم على الإيمان الصحيح، وترغيباً لهم في تقوى الله الحاملة لهم على الإيمان برسول الرحمة ﷺ، حيث لا يصح إيمانهم إلا بالإيمان به وإتباعه. ويكون معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا بعيسى إيماناً خالصاً: اتقوا الله، واخشوا عقابه، واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر، وآمنوا بمحمد ﷺ، وقد صح حديث لرسول الله ﷺ في ذلك.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية:

«قد تقدم في رواية النسائى عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمنى

---

(1) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٢٥٩).

أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في القصص[١]، وكما في حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران، وعبدٌ مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجلٌ أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»، أخرجه الشيخان، ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبى حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير».[٢]

ومع ذلك، فإن الآية تحتمل أن يراد بالذين آمنوا المؤمنون من أهل ملة الإسلام، فتكون الآية بشارة لهم بأنهم لا يقل أجرهم عن أجر مؤمنى أهل الكتاب، لأنهم لما آمنوا بالرسل السابقين أعطاهم الله أجر مؤمنى أهل مللهم، أى أعطاهم أجرهم مرتين، ويكون قوله للمؤمنين ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ مستعملاً في الدوام على الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ في سورة النساء، ويكون إقحام الأمر بالتقوى قصداً لأن يحصل في الكلام أمر بشىء يتجدد، ثم يردف عليه أمر يفهم منه أن المراد به طلب الدوام، وهذا من بديع نظم القرآن.[٣]

ويؤيد هذا الاحتمال ما رواه البخارى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا

---

(1) سورة القصص، آية: (٥٤).

(2) الحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣١٧). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١)، (٢٧/ ١٤٢).

(3) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٢٧).

فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم».[١]

بل إن الله – سبحانه وتعالى – زاد المؤمنين من أهل الإسلام، جراء تقواهم وثباتهم على الإيمان، ما جاء في جواب الشرط المحذوف في الآية، وهو النور الذي يمشون به، والمغفرة.

فكأنه أثابهم في الآخرة كفلين من رحمته، مع مغفرة الذنوب والخطايا، وذلك هو الفوز المبين، وجزاء الدنيا، وهو قوله: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾، وهذا الجزاء في الدنيا تمثيل لحالة القوم الطالبين التحصيل لرضا الله والفوز بالنعيم، الخائفين من الوقوع في ضد ذلك، بحالة قوم يمشون في طريق بليل، يخشون الخطأ فيه، فيعطون نوراً، فيتبصرون بالثنايا، فيأمنون الضلال فيه.[٢]

وهذا – كما هو واضح – على احتمال أن المراد بالآية المؤمنون من أهل ملة الإسلام. وإذا قلنا بالاحتمال الأول فلا شك أن هذا الجزاء ينتظر أولئك المؤمنين من أهل الكتاب إذا اتقوا ربهم وآمنوا برسوله محمد ﷺ.

وإنما ضوعف أجرهم لما في النفوس من التعلق بما تدين، فيعسر عليها تركه. وأما في جانب المسلمين فلئلا يفوقهم بعض من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب، إذ المسلمون مؤمنون بموسى وبعيسى وبجميع الرسل، لا يفرقون بين

---

(1) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١)، (٢٧/ ١٤١). والحافظ ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٣١٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٢٨).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٤٢٩).

أحدٍ منهم.

ويحسن بنا أن ننقل كلاماً جميلاً للأستاذ/ سيد قطب، نختم به الآية. يقول:

«ونداؤهم على هذا النحو ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب، وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله، فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص، معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار.

﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي: نصيبين من رحمته، وهو تعبير عجيب، فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها، ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض.

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ هبة تنير تلك القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط ولا تلتوى بها الطريق نوراً تمشون به».(1)

٣- ذكر آياته في الآفاق وفي أنفسهم:

من الأساليب التي حض القرآن الكريم بها الناس على تقوى الله، ودعا الرسل أقوامهم بها، تلك الآيات الكونية التي بثها - سبحانه - في الكون الرحيب والآيات التي في أنفسهم، شاهدةً على وحدانيته وعظمته، داعيةً الخلق للسجود له، ودوام التسبيح بحمده، والتي لو تفكر فيها المرء، ونظر إليها بعين الاعتبار، لكانت هاديته إلى الله - جل وعلا - وإلى تقواه حق تقاته.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

---

(1) الأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٦/ ٣٤٩٦).

وهذا استدلال آخر[١] على وحدانية الله تعالى، وعلى انفراده بالخلق والتقدير. استدلال بأحوال الضوء والظلمة، وتعاقب الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، ثم عطف بما هو أعم وأشمل، وهو ما خلقه - جلت قدرته - في السماء من الأبراج النيرة، والأفلاك الدائرة، والمجرات الهائلة، وما فيها من ملائكة وغيره مما لا يحيط بمعرفته إلا هو - سبحانه، وكذلك ما خلق في الأرض مما بلغته معرفة الناس على مختلف العصور، من البحار والمحيطات وما فيها وما تحتها، ومما هو في باطن الأرض من الجمادات والمعادن وغيرها، ومما هو على ظهرها من أنواع المخلوقات والحيوانات والنباتات. كل ذلك آيات باهرات تدل على الصانع الخالق المدبر الحكيم - سبحانه وتعالى - وعلى وحدانيته، وكمال قدرته التي تدعو الناس إلى تقوى الله تعالى وتوحيده، وإفراده بالعبادة.

وبالنظر في الآية الكريمة:

نرى تأكيد هذا الاستدلال بحرف «إنَّ»، لأجل تنـزيل المخاطبين به، الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد، منـزلة من ينكر أن في ذلك آيات على الوحدانية، بعدم جريهم على موجب العلم.[٢]

قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يشمل كل الأجسام والأحوال فيهما، وبالتالي يكون هذا الدليل أشمل من كل الأدلة السابقة، ويبين حينئذ وجود آيات الله تعالى الشاهدة على الوحدانية ولزوم التقوى في كل مخلوقاته، ويظهر ضآلة الإنسان المتمرد على ربه، المنكر لوجوده، أو المتأبى على

---

(1) حيث سبقتها آية أخرى تدل على وحدانية الله وبديع صنعه، وهي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

(2) انظر الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (١١/ ٩٧).

طاعته وتقواه.

ولهذه الآية آية شبيهة في سورة البقرة، وهى قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ ...﴾ إلى قوله: ﴿... لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤] وأخرى شبيهة بها في سورة آل عمران، وهى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فجعلت آية البقرة: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾، وآل عمران: ﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، والآية التي معنا: ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾. يقول الطاهر بن عاشور: «لأن السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات، ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأن نفعها حاصل للذين يتقون، أى يحذرون الضلال، فالمتقون هم المتصفون باتقاء ما يوقع في الخسران، فيبعثهم على تطلب أسباب النجاح، فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل».(١)

وهكذا يختص أهل التقوى بالانتفاع بالآيات، وأن الآيات دليل لتقوى الله وتوحيده، ومن ثم دعا الرسل أقوامهم إلى التفكر والنظر لتحصيل تقوى الله.

الآية التالية: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

هذه آية من آيات التفكر في الآفاق والأنفس، وهى من الآيات التي ساقها القرآن الكريم ليتبصر بها الناس قدرة الله تعالى وعظمته في بديع صنعه، فتحمل الناس على تقواه – سبحانه – وتوحيده، والاعتراف له بصفات الكمال، وتنزيهه

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ٩٨).

عن الشركاء في الأفعال والصفات، مع اتقاء غضبه، ومراعاة حقوقه. حملها الرسل إلى أقوامهم ليتقوا الله تعالى.

ونلاحظ في تحليل الآية ما يلى:

- أن الخطاب بالتقوى متوجه إلى الناس جميعاً، أى المكلفين من نزول الخطاب إلى يوم القيامة، مما يدل على أن التقوى ليست مختصة بقوم دون قوم، ولا بمكان دون مكان، ولا بزمان دون زمان، خاصةً وأن علة الأمر بالتقوى كذلك واحدة، وهى الخلق من نفس واحدة، والتي تظهر فيها المناسبة بين وحدة النوع ووحدة الاعتقاد.

- أن الله تعالى أمرنا بالتقوى، وذكر عقيبه أنه تعالى خلقنا من نفسٍ واحدة، ولبيان المناسبة بين الأمر بالتقوى والخلق من نفسٍ واحدة يحسن بنا أن نلخص هنا ما ذكره الإمام الفخر الرازى لجودة الكلام. يقول - رحمه الله:

«قولنا: إنه تعالى خلقنا من نفس واحدة مشتمل على قيدين. الأول: أنه تعالى خلقنا. والثانى: كيفية ذلك الخلق. ولكل واحد من هذين القيدين أثر في وجوب التقوى.

أما القيد الأول: وهو أن الله تعالى خلقنا، فلاشك أن هذا المعنى يوجب علينا الانقياد للأوامر والنواهى، أى لتقوى الله. وبيان ذلك بأكثر من وجه:

الأول: أنه لما كان خالقاً لنا، وموجداً لذواتنا وصفاتنا، فنحن عبيده، وهو مولى لنا، والربوبية توجب نفاذ أوامره على عبيده، والعبودية توجب الانقياد للرب الموجد الخالق.

الثانى: أن الإيجاد غاية الإنعام والإحسان، فإنك كنت معدوماً فأوجدك، وعاجزاً فأقدرك، وجاهلاً فعلمك، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ ﴾، فعليه أن يقابل تلك النعم بإظهار الخضوع والانقياد، وترك التمرد والعناد، وهو حقيقة التقوى.

أما القيد الثانى: وهو كونه – سبحانه – خلقنا من نفس واحدة، وأن ذلك يوجب تقواه – سبحانه. فبيانه من أكثر من وجه:

الأول: أن خلق جميع الأشخاص من نفس واحدة أدل على كمال القدرة، وتمام العلم، بحيث لو كان الأمر على غير ذلك من غير خالق عليم حكيم قادر، لم نر إلا أشياء متشاكلة ليست على هذا النسق، فلما رأينا في أشخاص الناس الأبيض والأسود والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل والقصير، دل ذلك على أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، قادر على كل الممكنات، عالم بكل المعلومات، فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان ارتباط قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ في غاية الحسن والانتظام.

الثانى: أن هذا يدل على المعاد، لأنه تعالى لما كان قادراً على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصاً مختلفين، وأن يخلق من النطفة شخصاً عجيب التركيب لطيف الصورة، فكيف يستبعد إحياء الأموات وبعثهم؟ ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]».(١)

ووَصْل ﴿ خَلْقُكُمْ ﴾ بصلة ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إدماج، للتنبيه على عجيب هذا الخلق وأحقيته في الاعتبار، وعطف: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ على: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هو صلة ثانية، وقوله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا ﴾ صلة ثالثة، لأن الذي يخلق هذا الخلق العجيب جدير بأن يتقى، وقد حصل من ذكر هذه الصلات تفصيل لكيفية خلق الله الناس من نفس واحدة هذا الخلق العجيب. ولو غير هذا الأسلوب، فجيء بالصورة المفصلة دون سبق إجمال، فقيل: الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً، لفاتت

(1) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٦٤٧-٦٤٩).

الإشارة إلى الحالة العجيبة من خلق الزوج، وهذا كله يحمل المرء على التفكر والاعتبار الداعي إلى تقوى الله – جل وعلا.

وقد شمل قوله: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ العبرة بهذا الخلق العجيب الذي أصله واحد، ويخرج مختلف الشكل والخصائص، والمنة على الذكران بخلق النساء من أجلهم، والمنة على النساء بخلق الرجال من أجلهن، ثم منَّ على النوع بنعمة النسل في قوله: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾، مع ما في ذلك من الاعتبار بهذا التكوين العجيب.(١) والبث: النشر والتفريق للأشياء الكثيرة، وهي من الألفاظ الموحية التي تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وقد جعلها من آياته الدالة على وحدانيته، والداعية إلى توحيده والتزام أوامره. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩]. فالمتأمل في هذا الكون يرى ما بث الله فيه من خلق، وكيف وزعهم على امتداد المكان وتغيره، وعلى امتداد الزمان وتعاقبه، بما يدل على تمام صنعه، وكمال علمه، وعظيم قدرته.

وبقية شرح الآية في الفصل السابق.

٤. تقريره سبحانه لهم أنه الرب والخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر، الذي بيده الأمر:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

وهذه الآية الكريمة مسوقة في إطار عدد من الآيات تدل على وحدانية الله

(1) انظر الطاهر بن عاشور، «التحرير والتنوير»، (٥/ ٢١٤-٢١٧).

تعالى، وتنكر على المشركين اتخاذهم آلهة أخرى مع الله - جل وعلا. وهى من الآيات التي جاءت على صيغة التقرير للمشركين بما خلق الله - جل وعلا، وبما نشر من آياته، وبما أخرج من معجزاته، ليسلموا بأن الفاعل المبدع لذلك كله هو الله، فإذا أقروا بذلك - ولابد - فإن السؤال اللازم: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، أى: أفلا تتقون الله، أى: أفلا توحدونه وتنـزهونه عن الشرك؟ أو: أفلا تخافون على أنفسكم أن يعاقبكم باتخاذكم شركاء من دونه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يملكوا شيئاً مما ذكر الله في تقريره لكم؟

وبالنظر إلى الآية نجد:

أن الآية تنـزل منـزلة الاستدلال على أن الله هو المولى الحق، الواجب التوحيد والطاعة، وقد احتج - سبحانه - عليهم بمواهب الرزق الذي تقوم به قوام الحياة، وبمواهب الحواس التي تميز وتستمع بمواهب الرزق، وبنظام التوالد والتناسل الذي به بقاء الأنواع، وهذه تفصيلات لبعض أدلة التوحيد. ولما كانت الأدلة كثيرة غير منحصرة، وما سبق تخصيص لهذه الأدلة أتى بعدها بالعام في قوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ ﴾، ليشمل كل شيء في خلق الله تعالى يتبصره المرء أو يسمعه، ليرى فيه التدبير المحكم، والنظام المتقن، فهذه كلها مواهب من الله تعالى، إذ كان المخاطبون يعلمون أن كل ما ذكر لا يفعله إلا الله، فلا جرم أن كان هو المختص بالإلهية والولاية والتقوى الشاملة.

والاستفهام في ﴿ قُلْ ﴾ تقريرى، وجاء الاستدلال على طريقة الاستفهام والجواب، لأنه صورة الحوار، ليكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، وهو من طريق التعليم فيما يراد رسوخه من القواعد.[1]

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١١/ ١٥٥).

والتقوى وأدلتها من أهم الأمور التي تستدعى إيصالها للسامعين والمخاطبين بكل ما من شأنه تثبيتها وترسيخها.

ويحبذ تلخيص كلام المفسرين في شرح هذه الأدلة على الوحدانية، المقررة للتقوى، وقد جمع الأستاذ/ سيد قطب معظم كلام المفسرين في ذلك، يقول – رحمه الله:

«﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ : من المطر الذي يحيى الأرض، نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، وما يحصلون عليه لأنعامهم. وما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى شيء من نواميس الكون عن رزق بعد رزق من السماء والأرض. حتى عفن الأرض كشف عن دواء وترياق.

﴿ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ : ﴿ أَمۡ ﴾ هنا للإضراب الانتقالى من استفهام إلى آخر، وفيه تنبيه على كفاية هذا الاستفهام في الدلالة على المقصود من تقوى الله تعالى، لو تفكر الناس فيهما حق التفكر، وهما الأساس لغيرهما من بقية الحواس، أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة، من يهبها القدرة على أداء وظائفها مع حساسيتها لأدنى أذى، من يصححها أو يمرضها، من يصرفها إلى العمل أو يلهيها، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره.. ذلك ما كانوا يدركونه. وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر، ومن دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة. وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات أو تركيب الأذن وأجزاءها، وطريقة إدراكها للذبذبات، لعالم وحده يدير الرؤوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم الحديث، وإن كان الناس يهولهم جهاز يصنعه الإنسان لا يقاس إلى شيء من صنع الله، بينما يمرون غافلين بالبدائع الإلهية، لا يسمعون ولا يبصرون.

﴿ وَمَن تُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ : إن

مدلول السؤال عندهم مشهود في خروج النبتة، وخروج الفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ، إلى آخر هذه المشاهدات، وهو عندهم عجيب، وهو في ذاته عجيب. وإن وقفة أمام الحبة والنواة تخرج منها النبتة والنخلة، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منها الفرخ والإنسان، لكافية في استغراق حياة في التأمل. وإلا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وأين كان يكمن العود؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق؟ وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء، والساق السامقة والعراجين والألياف؟ وأين كان يكمن الطعم والنكهة، واللون والرائحة، والبلح والتمر، والرطب والبسر؟ وأين في البيضة كان الفرخ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم، والزغب والريش، واللون والشيات والرفرفة والصوات؟ وأين في البويضة كان الكائن البشرى العجيب؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موغلة في الماضي؟ أين كانت نبرات الصوت، ونظرات العين، واستعدادات الأعصاب؟

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ ﴾ : في هذا الكون الذي ذكر كله وفى سواه من شؤون الكون والبشر؟ من يدبر ناموس الكون الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق؟ من يدبر حركة الحياة، فتمضى في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق، والتي لا تخطئ ولا تحيد؟ ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾».[1]

تفرع على ذلك أن الله هو الإله الحق، فقال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]:

وهذه هى الآية التالية لآية التقوى التي نحن بصددها. فبعد أن قررهم بما لا

(1) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٣/ ١٧٨١-١٧٨٢). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (٧/ ١٦٠-١٦١). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ٣٥٠).

يكون إلا من فعل الله وقدرته، وبعد أن أقروا بذلك، قال: أفلا يكون ذلك حاملاً لكم على تقوى الله؟ أفلا توحدونه وتطيعونه؟ ثم عقب في الآية الكريمة الأخرى بما معناه: فذلكم الذي يفعل ذلك هو الإله الحق، الذي لا يستحق سواه التقوى والعبادة، وإلا فكيف تُصْرَفون بعد هذه الأدلة البينة والبراهين الواضحة إلى الضلال؟ كيف تستسيغون ذلك أو تقبله عقولكم؟

وما زال حديث القرآن الكريم متصلاً عما يكون سبباً لتقوى الله تعالى، وبنفس الاستفهام التقريرى، فيقول: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]:

وهذه الآية التالية التي أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ، ليوقف المشركين على الإقرار بهذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بالله، ويذعنوا لشرعه ورسالة رسوله ﷺ، أى أن الإقرار بأن هذه المخلوقات العجيبة لله تعالى لابد من أن يكون داعية لتقوى الله - جل وعلا، إذ خلق السموات وما فيها ومن فيها لاشك خلق عظيم يدل على التدبير والنظام، والترتيب البديع الذي لا يختل منه شيء، ولا يتقدم فيه شيء على شيء، ولا يتخلف عن عمله وسيره شيء، ليدل على خالق قادر، حكيم عليم، قوى مدبر، ينبغى أن تذعن له الحياة، وتسجد له العقول والقلوب، توحيداً له، وإيماناً به.

ونلاحظ على الآية:

- أن التعبير جاء برب السموات ورب العرش، لأن انفراد الله تعالى بالربوبية في السموات والعرش لا يشك فيه المشركون[1]، لأنهم لم يزعموا إلهية

(1) وفيه رد على سؤال هل كان الكفار يعرفون شيئاً عن العرش، والإجابة نعم بدليل تقريرهم على ذلك، وإقرارهم به، واعترافهم بأن ذلك لله، لأنهم كانوا يعرفون رباً في

أصنامهم في السموات والعوالم العلوية، فكان ذلك من أعظم الأدلة على بطلان شركهم، وعلى إثبات وجوده -سبحانه، وعلى وحدانيته، وانفراده بالملك المستلزم لانفراده بالطاعة والانقياد. وهو دليل على كل ملحد ومشرك في كل زمان ومكان على وجود الرب ووحدانيته، إذ لابد لمثل ذلك من خالق مدبر - جل وعلا.

- أن الإجابة على السؤال جاءت في قراءة جمهور القراء: (سيقولون لله)، بلام جارة لاسم الجلالة، وقرأ بعضهم: (سيقولون الله) بدون لام الجر، والمعنى واحد، فالثانى بالنظر إلى اللفظ، والأول بالنظر إلى المعنى، كقولنا: من صاحب الدار؟ فيقال: زيد، أو: لزيد. وقد جاء الجواب بالجر لأن المستفهم عنه لوحظ بوصف الربوبية، والربوبية تقتضى الملك، وقد أنشد القرطبى ومن تبعه:

إذا قيل: من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجُرد؟ قلت: لخالد[1]

وقد ختمت هذه الآية بالحث على التقوى بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، لأنه لما تبين من الآية قبلها أنهم لا يسعهم إلا الإقرار بأن ملك الأرض ومن فيها لله، دل على أنهم من ملكه - سبحانه، فهم مربوبون له، لا للأصنام. ولما أقروا في هذه الآية أن السماء والعرش كذلك - وهى أن السماء أعظم من الأرض وما فيها بما لا يقارن - ناسب حثهم على تقواه، لأنه حينئذ لا يستحق الطاعة سواه،

=

السماء وهى عرشه، وأن أصنامهم تقربهم إليه زلفى، وإلا لكان ردهم ما هذا الذي تسأل عنه؟ ولكان سبباً لطعنهم بأنه يخاطبهم بما لا يعلمون.

(1) انظر محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٦، (١٢/ ١٤٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٠)، (١٨/ ٨٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/ ١١٠). والنسفى «مدارك التنزيل»، (٣/ ٩٧).

وأن يطيعوا رسوله المخاطب لهم، لأن التقوى تتضمن طاعته كذلك ﷺ.[1]

وكان الختم بالتقوى في الآية أنسب في سياقه من التذكر الذي جاء في الآية السابقة لها، وهي: ﴿ قُل لِّمَن ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾، لأن فيها الوعيد الشديد على ترك التوحيد واتخاذ الشركاء بعد الإقرار بما في السموات، مما يدل على ربوبيته - سبحانه - لما هو أعظم في نظرهم من الأرض وما عليها.

وحذف مفعول (تتقون) لتنزيل الفعل منزلة القاصر، لأنه دال على معنى خاص، وهو التقوى الشاملة التي تكون مطلوبة مع مثل هذا الإقرار من توحيده - جل وعلا - وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات.[2]

وهكذا رأينا كيف ساق القرآن الكريم هذه الآيات التي يقر بها المخاطبون بدعوة الرسل، وسلك فيها سبيل الموعظة على لسان الرسل، لتكون من الأسباب والوسائل التي تحمل الناس على تقوى الله تعالى، وهي كذلك جديرة عند التأمل فيها أن تحمل كل أحد على تقوى الله تعالى، والقرآن الكريم ملىء بمثل هذه التقريرات التي لا يلتفت إليها أحد ولا يتعظ منها مبصر أو مستمع. وصدق إذ يقول - سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وهي في نفس الوقت زاد الدعاة المتفكرين في عظمة الله تعالى وحجتهم في الأخذ بأيدي الناس إلى طريق ربهم، ولكنها للأسف مع قوة برهانها ووضوح دلائلها طريق مهجورة لا يسلكها إلا النادر من العلماء العاملين.

وإذا كان كل ما سبق قد ذكره القرآن الكريم دلالةً على التقوى، فقد تبقى ما

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨/ ١١١).

(2) المرجع السابق، (١٨/ ١١١).

وُصِفَ به القرآن من أنه هو نفسه بعربيته وما صرف فيه من الوعيد دليل على التقوى، وسبب لها، وبهذا المعنى جاءت الآيتان اللتان نختم بهما هذا المطلب.

الأولى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

وهذه الآية الكريمة تبين أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم بلسان عربى، المخاطبين به، ليفهموه، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، وليقطع عذرهم في عدم الإيمان به لو كان بغير لغتهم.

ولم يقتصر على ذلك بل ذكر لهم فيه ما ينبغى أن يكون سبباً لتقواهم، والتي هى طريق سعادتهم، من تكرار الوعيد وتنويعه.

وبالنظر في الآية نلاحظ:

١ – منة الله تعالى في إنزاله القرآن الكريم، ليكون للناس نوراً يهتدون به في ظلمات الضلالة، وهادياً لهم من عمايات الجهل والغواية، وروحاً تحيا به قلوبهم لتسير على صراطه المستقيم، فتتحقق به سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]. متى التزموا تعاليمه ونفذوا أحكامه. وكان من تمام منته وعظيم حجته أن أنزله بلسان عربى مبين: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت: ٤٤].

٢– التنويه بشأن القرآن ونباهة قدره، حيث عطف ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ على ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ ﴾ [طه: ٩٩]، أى كما قصصنا عليك قصصاً لا يعادله في أسلوبه ومعناه ومقصوده قصص، أنزلنا إليك هذا القرآن العظيم، وأشار إليه بالضمير في ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ مع أنه لم يسبق له ذكر للإيذان

بنباهة شأنه، وكونه مركوزاً في العقول، حاضراً في الأذهان.[1] ونكر ﴿ قُرْءَانًا ﴾ ليفيد الكمال، أى أكمل ما يقرأ حيث يسرت تلاوته، وما ذلك إلا لفصاحة تأليفه وتناسب حروفه.

كل ذلك ليُتوصل منه إلى ما صرفه فيه مما يبعث على التقوى التي هى المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب، حيث قال بعد ذلك: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ تُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

أما التصريف فهو التنويع والتفنين، وذكر بعضهم أنه التكرار[2]، فأفاد بذلك أنه كرر لهم من الوعيد، أى التهديد بأمور البعث والنشر والحساب والجنة والنار والصراط والميزان ومن أهوال القيامة وأخبار المكذبين من الأمم السابقة وما فعل بهم ما يحملهم بعضه على الخوف الباعث على الإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ، فلم يترك سبيلاً لتخويفهم حملاً لهم على التقوى إلا وعظهم به وصرفه إليهم، وأفادهم منه خبراً.

والآية الكريمة تفيد وجوب اتباع هذا الأسلوب من أساليب القرآن الكريم في دعوة الناس إلى الله تعالى، وحملهم على تقواه، وفطمهم عن المعاصى، لأن معنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ - بحذف مفعولها - أى يتقون الكفر والمعاصى، وأسلوب الترهيب عندما ينضم إلى ما ذكرنا من الترغيب قبل ذلك تكتمل به تربية النفوس، وتتوازن به الدعوة إلى الله تعالى، حيث جبلت النفوس على الانقياد لما يخوفها، وأنها إذا ما تركت بغير وعيد وتخويف انفلت زمامها، ولم

---

(1) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٤٩٢). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد٩، (١٦/ ٣٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤)، والألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ١١١).

يسهل قيادها، فألفت المعاصى وركبت الشهوات، ولم ترعوِ إلا أن يأتيها النذير ويزلزلها التهديد، حينئذ تبدأ في التفكير والمراجعة، فالخوف يؤدب الجوارح، ويمنعها من الاستمرار في الغواية، ويكفها عن المحرمات.

فشمول الدعوة لهذا الأسلوب مما ينبغى المحافظة عليه، ولكن إلى الدرجة التي تؤتى ثمرتها، ويظهر فيه تأثير الموعظة، لا إلى الحال التي يعتاد فيها الناس سماع التخويف مع تبلد الإحساس وعدم الانتفاع به، خاصة عندما يقول الموعظة من لا يحسنها، أو لا تخرج من القلب، لذلك قال ابن مسعود ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة».[1]

٣- أما قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ تُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ففيه:

أولاً: أسند التقوى لهم، وأسند أحداث الذكر للقرآن الكريم، لأن التقوى تسند للمكلف على أى معنى من معانيها، سواء الخوف أو ترك المعاصى، أو الالتزام بالأوامر والنواهى، أو الإيمان كما أشرنا إلى تلك المعانى، أما الذكر فلما كان هو الموعظة التي تحدث عند سماع القرآن، وكانت تتجدد بتكرار الوعيد، فناسب أن يسند إليه هذا الإحداث. وقد اختصر القاضى البيضاوى هذا المعنى في تفسيره، فقال: «﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ المعاصى، فتصير التقوى ملكة لهم. ﴿ أَوْ تُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ عظةً واعتباراً حين يسمعونها، فتثبطهم عنها. ولهذه النكتة أسند التقوى إليهم والإحداث إلى القرآن».[2] وعلى هذا الكلام جرى المفسرون من قبل البيضاوى وبعده[3]، وإن خالفوا في بعض الألفاظ.

---

(1) البخارى (٧٠)، وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (١/ ١٦٣). ورواه مسلم (٢٨٢١)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٧٩).

(2) ناصر البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (٤/ ٧٢).

(3) ذكر ذلك العلامة الألوسى «روح المعانى»، وقال: «على أن في القلب من التعليل شيئاً»، (١٦/ ٣٩٠).

ثانياً: تقديم التقوى على حدوث الذكر. فإن جعلنا ﴿ أَوۡ ﴾ بمعنى الواو للتنويع فيكون المعنى: لعلهم يتقون ويحدث لهم ذكراً، أى: يتقون المعاصى ويحدث لهم طاعة. على أن الذكر بمعنى الطاعة أو تذكراً يحمل على الطاعة، وهذا من باب التخلية والتحلية، حيث تقدم تخلية النفس عن المعاصى ثم تحليها بالطاعة، وهو معنى حسن أشار إليه العلامة الألوسى.(١) أو تكون ﴿ أَوۡ ﴾ للتغاير، ويكون المعنى: لعلهم يؤمنون ويطيعون، أو يحدث لهم القرآن تذكيراً ونظراً فيما يحق عليهم أن يختاروه لأنفسهم.(٢) وتكون التقوى هنا أعم من ترك المعاصى فقط.

ثالثاً: قوله: ﴿ تُحۡدِثُ ﴾ عبر به لأن الذكر ليس من شأنهم قبل نزول القرآن، فالقرآن أوجد فيهم ذكراً لم يكن من قبل، قال ذو الرمة:

ولما جرت في الجزل جرياً كأنه سنا الفجر أحدثنا لخالقها شكراً (٣)

وهكذا رأينا كيف أنزل الله القرآن الكريم - المعجزة العظمى - وصرف فيه من الآيات - آيات الوعيد - ما يكون سبباً لتقواه - سبحانه، ليدل على عظيم منزلة التقوى، ولزوم التحلى بها، والدعوة إليها.

والآية الثانية: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨].

أشارت الآية السابقة إلى أن الله تعالى أنزل القرآن عربياً، وصرف فيه من

---

(1) انظر: العلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ٣٩١). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٧/ ٣٨٦). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١١/ ٥٠). والثعلبى «عرائس التفسير» على هامش جامع البيان للطبرى، (١٦/ ١٣٦).

(2) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ٣١٤).

(3) المصدر السابق، (١٦/ ٣١٥)، «ديوان ذى الرمة»، طبعة المكتب الإسلامى، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً. أما في هذه الآية فقد امتن عليهم بالقرآن العربى نفسه لعلهم يتقون، ولكن بوصف جديد وهو كونه غير ذى عوج.

ونلاحظ على هذه الآية:

١- أن الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧] ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. ومن ثم لم يصرح بالتذكر مرة أخرى، وإن كان هنا عبر برجاء التذكر ﴿ لَّعَلَّهُمْ ﴾، لأنه أنسب مع ضرب الأمثال، بخلاف التهديد في الأولى، حيث ناسب قوله: ﴿ أَوْ تُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ إذ ذاك شأن الوعيد.

٢- ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾: جاءت ﴿ قُرْءَانًا ﴾ منصوبة على الحال من اسم الإشارة في الآية السابقة، أى حال كونه مقرؤاً عربياً، مما يدل على منة الله تعالى في تيسير قراءته للناس باللسان العربى، حتى يفهموا عن الله تعالى مراده، ويكون عونهم في تحقيق أسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهناك معنى ثانٍ، وهو الثناء على القرآن باستقامة ألفاظه ونظمه، وإلا اختل المقصود من كونه ميسراً للتذكر أو مفيداً للتقوى.

وكذلك نزوله بلغة العرب نعى على المشركين الذين تلقوا القرآن تلقى من سمع كلاماً لم يفهمه كأنه بلغةٍ غير لغته لا يعيره بالاً، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع تحديهم بمعارضته وعجزهم عن ذلك.

وأما وصف القرآن الكريم في هذه الآية بأنه ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، فهو ثناء باستقامة معانيه. يقول الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» ما مختصره: «لأن العِوج (بالكسر) مختص بالمعانى دون الأعيان»، كما

ذهب إليه أئمة اللغة مثل: ابن دريد[١]، والزمخشرى، والفيروزابادى[٢]، وإن صحح المرزوقى في «شرح الفصيح» أنهما سواء. ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج أن عوج نكرة في سياق ما هو بمعنى النفى ﴿ غَيۡرَ ﴾، فتفيد العموم، أى: ليس فيه عوج قط في أى معنى من معانيه، فيفيد ذلك استقامة معانيه وكمالها».[٣]

فاتضح بذلك أن القرآن الكريم قد أنزله الحق - جل وعلا - مستقيم اللفظ والمعنى، ومتى استقامت المعانى واتضحت كان العمل بما يدعو إليه أيسر، وهو تقوى الله - سبحانه، فكان مناسباً أشد المناسبة قوله: ﴿ غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨ ﴾.

---

(١) محمد بن الحسن أبو بكر بن دريد، له مجالس أدبية وعلمية، وله «ديوان ابن دريد»، تحقيق محمد بدر الدين العلوى، الجامعة الإسلامية، على كسره، ١٩٤٦م.

(٢) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن إدريس بن فضل الله الفيروزابادى ولد عام ٧٢٩هـ، ١٣٢٩م، لغوى مشارك في عدد من العلوم وتوفى عام ٨١٧هـ، ١٤١٤م، من تصانيفه الكثيرة القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط. انظر الضوء اللامع للسخاوى (١٠/ ٧٩-٨٦).

(3) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٣/ ٣٩٨-٣٩٩). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٤٦). والفيروزابادى «بصائر ذوى التمييز»، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، تحقيق عبد العليم الطحاوى، (٤/ ١٠٧).

المطلب الرابع
مدى اتفاق أسلوب دعوة الرسل إلى التقوى واختلافه وأسباب ذلك

اتفقت دعوة الرسل جميعاً في الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وجاء بعض الخلاف في سياق دعوتهم التي ذكرها القرآن الكريم، وإنما كان ذلك لاختلاف المدعوين في وقوعهم في مخالفات أخرى غير الشرك، فقص القرآن ذلك عبرة لمن بعدهم وإرشاداً لهم في دعوتهم.

ونبدأ بقصة نوح عليه السلام فنلاحظ أنها ختمت بقوله تعالى مرة أخرى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٨] على خلاف بقية القصص التالية من قصة هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - حيث أخرت هذه الجملة بعد جملة أخرى لها معانٍ متعلقة بطلب التقوى والحض عليها أيضاً.

أى أنه بعد أن قال تعالى في قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٩] قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾، أما بقية القصص فقال في قصة هود: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٧] ثم جاء تعبير القرآن بقوله: ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، ثم جاءت جملة الأمر بالتقوى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣٦﴾ ﴾، ثم استأنف الأمر بها مع علته، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢] إلى آخره. وفى قصة صالح وشعيب - عليهما السلام - فصل كذلك بينهما، وإن لم يعقبهما باستئناف الأمر بالتقوى، والسبب في ذلك أن دعوة نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى وإلى تقواه استغرقت زمناً طويلاً كما هو معروف، ولم يعلم عنهم ما أثر عمن بعدهم من الأمم من المعاصى والذنوب، سوى الشرك، لذلك كانت قصته عليه السلام

كلها في الدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك وعبادة الأوثان التي اشتهروا بها وقالوا فيها ما ذكره القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح: ٢٣]، فكان أن جاء التأكيد مرة أخرى على تقوى الله وطاعة رسوله، أو بمعنى فاتقوا الله أى خافوا الله من عاقبة الإشراك به مؤكداً مرة أخرى على توحيده.

أما الأمم التالية فقد ظهر فيها - علاوة على الإشراك بالله تعالى والتكذيب بالبعث والحساب - أمراض أخرى كالظلم والبغى واللواط وتطفيف الكيل، مما استدعى - إضافةً إلى دعوتهم إلى الإيمان بالله - أمرهم بترك المعاصى والمنكرات، وتحذيرهم مغبة ذلك، وهو ما يتضح في قصة هود وصالح وشعيب - عليهم السلام.

ففى قصة هود عليه السلام نراه بعد دعوته قومه إلى الإيمان به -سبحانه- وتوحيده، وبعد إشارته إلى أنه - كما قال نوح عليه السلام عن نفسه - أمين في ذلك ولا يبغى مالاً ولا غيره، منـزه عن الطمع في شىء من ذلك، رأيناه عليه السلام ينكر عليهم أموراً قبيحة يأتونها تستلزم أن يدعوهم فيها إلى تقوى الله مرة أخرى، وينذرهم العذاب الأليم إن لم يتركوا ذلك، وهى في قوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ أى أتبنون في كل طريق من طرق السائرين في هذه الصحراء المهلكة بناء تعبثون منه بأبناء السبيل، بدلاً من هدايتهم في طريقهم ومعاونتهم بالضيافة وغيره إلى أن يصلوا سالمين إلى بلادهم وأهليهم، كى تنالوا بذلك رضا الله تعالى في الأولى والآخرة، وكذلك دعاء الناس وثناءهم.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ : أى تشيدون تلك الصهاريج الضخمة تحت الأرض لتخزين الماء، على قول بعض أهل العلم، وعلى قول البعض الآخر أنها القصور المشيدة، تنسون بذلك الآخرة ولقاء الله تعالى، وترجون بذلك الخلود في الدنيا. وهو أسلوب تهكم بهم، إذ هم يرون

بأعينهم الموت وفعله بالناس، وأن ليس ثَمَّ أحد مخلد فيها.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ : وإذا بطشتم بالسيف أو السوط بطشتم جبارين: بغشم بلا رأفة، ولا قصد تأديب، ولا نظر في عاقبة، بل باعتساف وظلم، لا يقدر لكل ذنب ما يستحق من العقوبة، وقد كرر جواب الشرط بلفظه لإظهار المبالغة.(١)

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ : وكان الترتيب المنطقى لدعوة الحق، أنه بعد أن عدد لهم الموبقات التي يرتكبونها ونبههم إلى عاقبتها، أن يحذرهم منها، ويأمرهم بما يكون سبب نجاتهم من وبيل عذابها، وهو تقوى الله تعالى. فتقوى الله سبب النجاة وعنوان البقاء والظفر، وتركها سبب العذاب، حيث قال: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٥]. وهكذا يتعلم الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء منهج الدعوة إلى تقوى الله، وكيفية الحث عليها والأمر بها، والتنبيه على ما يكون من منكرات تكون سبب غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة، وقد دل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر من استيلاء حب الدنيا والكبر على قلوبهم، بأنه الذي أخرجهم عن عبوديتهم لله تعالى، ومقصود الدعوة والدعاة إرجاع الناس إلى عبودية الله تعالى.

لم يقف هود عليه السلام في أمرهم بتقوى الله عند حد الإنكار على المنكرات والمعاصي، بل تعدى ذلك إلى شيء مهم يدفع الناس إلى تقوى الله تعالى، وهو تذكيرهم بنعمته عليهم. فإذا كان قد خوفهم مغبة معصيتهم ليدفعهم إلى تقوى الله، فإنه هنا يذكرهم بنعمته سبحانه ليكون شكرها هو تقوى الله كذلك، خاصة وأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

---

(1) انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٢/ ١٦٥). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٦٨). وغيرهما.

وإن شكر هذه النعم يكون بتصريفها في مرضاة مسديها والمتفضل بها سبحانه، وفى ذلك بقاؤها وزيادتها. وإن ترك الشكر يكون كفراناً بهذه النعم يستوجب العقاب منه، مع ذهاب تلك النعم: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

من ثم وجدنا الآيات الكريمة تذكر ذلك بعد قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾، ولكنه بنى الكلام على عطف الأمر بالتقوى على الأمر الذي قبله، تأكيداً له واهتماماً بالأمر التقوى.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» بعد إيراده الكلام السابق: «وإنما أُتِى بفعل ﴿ ٱتَّقُواْ ﴾ معطوفاً، ولم يؤت به مفصولاً، لما في الجملة الثانية من الزيادة على ما في الجملة الأولى من التذكير بإنعام الله عليهم فعُلق بفعل التقوى في الجملة الأولى اسمُ الذات المقدسة للإشارة إلى استحقاقه التقوى لذاته، ثم بفعل التقوى في الجملة الثانية اسم موصول بصلته الدالة على إنعامه للإشارة إلى استحقاقه التقوى لاستحقاقه الشكر على ما أنعم به».[1]

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن القرآن الكريم ذكر إمداده – سبحانه – لهم بالنعم إجمالاً: ﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ليهيئ كذلك السامعين لتلقى ما يرد بعده، ثم فصّل تلك النعم مع إعادة الفعل «أمدكم» ليشعر بأهمية وعظيم هذا الإمداد منه تعالى، كى يتفكروا به في تقوى الله – جل علاه، ويكون عوناً لهم على ذلك.

وعلى عادة القرآن الكريم في ذكر الأمور المهمة تنبيهاً على غيرها، ذكر هذه النعم الثلاث: الأنعام والبنين والجنات والعيون من جملة النعم العظيمة عليهم.

وابتدأ بذكر الأنعام لأنها أجل النعم عليهم، لأن منها أقواتهم ولباسهم

---

(1) انظر محمد الطاهر بن عاشور « التحرير والتنوير »، (١٩/ ١٦٩).

وعليها أسفارهم وهى دليل الغنى عند العرب، حيث تحصل بها الرئاسة في الدنيا والقوة على من عاداهم. وعطف بالبنين لأنهم عونهم على الحياة وكثرة أمتهم وذكرهم من بعدهم، ولأنهم يستعينون بهم في حفظها والقيام عليها. وعطف بالجنات والعيون، لأنها رفاهيتهم ورغدهم بعد ذلك حيث اتساع رزقهم وعيش أنعامهم وإتمام النعمة عليهم.

وجاءت جملة: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٥] مرة أخرى لتؤكد قيمة التقوى التي يدعوهم إليها وأهميتها، إذ أن هذه الجملة تعليل لإنكار عدم تقواهم، أى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إذا لم تتقوا، وهى في نفس لوقت أمر بتقوى الله تعالى.

ووصف اليوم بالعظيم مجاز عقلى، أى إن ما يقع فيه من أهوال سيكون عظيماً، بمعنى أنهم لن يستطيعوا له رداً ولا دفعاً، وهذا من شأنه أن يدفعهم دفعاً ويسوقهم بكل الطرق إلى تقوى الله.(١)

وضحت تلك الآيات الكريمة السبيل الذي سلكه أنبياء الله تعالى في دعوة الناس إلى تقوى الله، وهذا يحتاج منا إلى وقفة تأمل تبصرنا بهذا الطريق، لنهدى أنفسنا وغيرنا إلى تقوى لله، وتلك مهمة أتباع الرسل، التي يستنقذون بها أمتهم من الدمار الماحق الذي يحيط بهم.

وأما قصة ثمود فقد تكررت فيها الآيات الأولى الآمرة بالتقوى كقصة عاد، وهى تبين وحدة الرسل في الدعوة إلى توحيد الله - جل علاه - ونبذ الشرك مع الإنكار على كل معصية وقعت فيها كل أمة من هذه الأمم. ولكن في قصة عاد - كما ذكرنا - وبخهم هود عليه السلام على منكراتهم، وفرع على ذلك أمرهم بالتقوى، ثم

---

(1) انظر أبا حيان الغرناطى «البحر المحيط»، (٨/ ١٧٩). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٧٠). وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ١٢٢).

أمرهم بالتقوى مرة أخرى لما أسدى لهم من نعم، إجمالاً وتفصيلاً. أما في قصة ثمود فقد أعلن رسولهم صالح عليه السلام بالتوبيخ على منكراتهم، وحذرهم مغبة التمادى في ذلك ثم أمرهم بتقوى الله وفى طى الإنكار عليهم كان تذكيرهم بالنعم التي لم يشكروها، إذ كانت سبب بطرهم وتكبرهم، وخروجهم عن أمر الله تعالى، فلم يستأنف لشكر النعم الأمر بالتقوى كما حدث في قصة عاد إذ كانت في طيها، وكان حديثه مهتماً بالسبب الذي جعلهم كذلك وهو طاعة المسرفين فركز عليه، وهذه الآيات هى قوله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

وهذه الأمور التي أنكرها عليهم منكرة في كل عصر وآن، وإن كان ظاهرها يوحى بالسؤال التالى: ما المنكر في ذلك؟ ولتقريب المعنى نسوق هذه الصورة المنكرة من عصرنا الحالى: فكلنا يعرف هذه الطبقة التي أغتنت فجأة في العقدين الأخيرين بشكل يثير التساؤل والحيرة، ثم بدأت في تصريف هذه الأموال في بناء القصور والفيلات الفخمة، وحشوها بما لم يسمع به معظم الناس، خاصةً على الشواطئ، وأحاطوا ذلك بالجنات والعيون؛ صناعية وطبيعية، وتفننوا في اقتناء كل وسائل المتع والترفيه. لقد قرع آذاننا وصكها صكاً عنيفاً الطرق السفيهة التي تنفق فيها تلك الأموال، وتصرف فيها الأوقات من لهو ومجون مما لا يخطر على بال.

وقد وقف أهل العقل والفكر والدين موقف المنكر، موقف المتحسر المتألم الذي يرى في ذلك وباءً شديداً ومنكراً خطيراً في محاولة منهم لوقفه أو حصر آثاره. كان موقف صالح عليه السلام إذن ضرورياً لوقف هذا البلاء الذي يأخذ الصالح

والطالح.

وقف إذن صالح عليه السلام وقفة المنكر المحذر، الذي يدعو إلى تقوى الله، آمراً لهم كذلك بأن يطيعوا رسولهم، وألا يطيعوا أمر المسرفين السفهاء الماجنين، الذين يظنون أنهم بأموالهم وما هم فيه من أمن ورفاهية خالدون مخلدون.

ألا يطيعوا أمر المسرفين، إذ هو أمر بالفساد لا صلاح معه. ولقد كان يكفى أن ينهاهم عن طاعة المسرفين، ولكنه أعقبه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾، كأن فسادهم لا حيلة فيه، إذ لا وجه لأى خير أو صلاح منه، بل هو محض الفساد الذي يجب أن يجتنبوه، وأن يتوبوا إلى الله منه، حتى لا يحل عليهم غضبه، ويحيق بهم عذابه.

إن استمرارهم في شركهم، وركوبهم تلك المعاصى التي نسوا بها آخرتهم، ولهوا بها عن الموت والحساب والاستعداد له، جعلهم مستحقين لعذاب الله، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وأخذهم عذاب يوم عظيم، وما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

إن الدعاة إلى الله تعالى مكلفون بالدعوة إلى تقوى الله وعدم الكف عن ذلك، وإن الدعوة إلى الله – سبحانه – في مثل تلك الأحوال لهى من أهم الأمور لأن هذه الظواهر نذير شؤم ومقدمة سوء يخشى على الجميع من عاقبتها، كما أرشدت الآية الكريمة.

قصة شعيب عليه السلام :

بدأت قصة شعيب عليه السلام مع قومه كما بدأت القصص السابقة بأمرهم بتقوى الله تعالى وتوحيده، وترك الشرك به – سبحانه. والكلام فيها هو نفس الكلام في كل القصص.[1]

---

(1) يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

وكان قد انتشر فيهم ما ذكره الله تعالى عنهم من تطفيف الكيل، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، علاوة على ما ذكر من شركهم وهى منكرات غير منكرات سابقيهم، فاقتضى أمر الله أن ينهاهم عنها، يقول الله - جل ذكره - عن شعيب عليه السلام وهو ينكر عليهم ويأمرهم بالحق بعد دعوتهم إلى توحيد الله: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٤].

وقد رأينا في قصة هود عليه السلام قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴾ مكرراً لهم الأمر بالتقوى، وقد ناسب ما هم فيه من العظمة والأبهة ليتقوا الله، إذ هو مصدر ذلك.

أما هنا مع أصحاب الأيكة فلم يتكرر معهم ما ذكر في قصة «عاد» من قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ بل ذكرهم شعيب عليه السلام بالمناسب لما هم عليه من الأوصاف السيئة السابقة ليردعهم عنها لأنهم لم يكونوا في شيء من هذا، بل كانوا يطففون الكيل، ويسرقون الناس، ويقطعون الطريق،

=

إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ، والكلام في التقوى كما هو في الكلام في قصة نوح عليه السلام، ولكن القرآن الكريم ذكر هنا شعيباً عليه السلام بغير وصفه بأنه أخوهم. والعلة - كما يقول الإمام ابن كثير - أن الأيكة هى شجرة كانوا يعبدونها، فلم يناسب أن يذكرهم بأخوتهم في ذلك، ولما جاء ذكر مدين قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾ وهى أخوة النسب كما أسلفنا القول، وبناء على قول الإمام ابن كثير فإن أصحاب الأيكة هم أنفسهم أهل مدين، ولكن ذهب كثير من أهل العلم إلى أن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، وأرسل شعيب عليه السلام إليهما معاً. انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ١٦٩). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣/ ٣٤٥).

ويغيرون على الآمنين سلباً ونهباً، فكان أن ذكرهم شعيب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ أى الأولين الذين كالجبال في قوتهم وظنهم البقاء والخلود قد دمرهم ومحاهم، وأنتم لستم في شيء مثل ذلك، فأولى بكم تقوى الله وطاعته، وهو ما يفيده لفظ الجبلة (المأخوذة من الجبل)، فانظروا ماذا فعل بهم، لتتقوا الله وترجعوا عما أنتم فيه، إذ يحمل الأمر بالتقوى هنا على التهديد بأن يلحقهم ما أصاب غيرهم ممن هم أشد منهم إذ لم يتقوا الله، ويتوبوا إليه ويتركوا ما يغضبه - سبحانه. وقد ذكرهم شعيب عليه السلام لذلك بقوم يعرفونهم يفعلون شيئاً من السوء مثلهم فأخذهم الله، وهم قوم لوط، فقال: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩] حيث كان من قبائحهم ما يفعل أهل مدين من الإفساد في الأرض، إذ يقول المولى عنهم: ﴿ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فارتقبوا عقاباً مثلهم إذا لم ترتدعوا وتتوبوا إلى هداية الله وتقواه.

وفى النهاية بينت الآيات منكرات ينبغى التنبيه عليها من أهل الدين والإصلاح والإرشاد في كل زمان، خشية مغبتها وسوء عاقبتها، وأن يميز الدعاة كذلك كل دواء ليداوه بما يناسبه من العلاج.

قصة لوط عليه السلام :

بدأت القصة بما بدأ به غيرها من القصص السابقة عليها بدعوة لوط عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى، ولكنها خالفتها في عدم تكرار الأمر بالتقوى البتة على خلاف كل القصص الأخرى، حيث قال الحق على لسان لوط عليه السلام بعد الآيات الأولى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. فبعد أن أمرهم بتوحيد الله وتقواه ثنى - كما رأينا من قبل - بإنكاره عليهم ما اختصوا به

من منكرات، وهى: مخالفتهم الفطرة بإتيانهم تلك الفعلة الشنيعة، فعلة إتيان الرجال من دون النساء، وهى جريمة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، مع إفسادهم في الأرض، وإتيانهم المنكر في ناديهم ومجتمعاتهم. وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولم يعد لوط عليه السلام إلى أمرهم مرة أخرى بتقوى الله تعالى، كما رأينا في قصص بعض الأنبياء قبله، ولعل ذلك يبينه سياق هذه الآيات وغيرها من الآيات في سور أخرى.

أما سياق هذه الآيات، فقد قال لهم عليه السلام بعد الأمر بالتقوى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾، فلم يكن مناسباً بعد مجابهتهم بأنهم معتدون يستحقون العقاب على عدوانهم أن يقول: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾، خاصة وأن ردهم الفورى على ذلك كان: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أما الرد الثانى، الذي قطعوا به كل سبيل في الطمع في تقواهم ورجوعهم إلى الله تعالى، والذي يمتنع معه أن يقول لهم مرة أخرى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ فهو قولهم الآثم: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فكان جزاؤهم أسوأ جزاء أوقعه الله تعالى بقوم كافرين فاسقين، ولم يمهلهم - سبحانه - أكثر من ذلك، لأن أمثالهم لا يستحقون إلا سوء العذاب في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]، علاوة على سخرية هؤلاء الأبخاس بأهل الطهارة والعفاف، والتي كانت سبباً كذلك في زيادة وطأة العذاب عليهم، حيث قالوا مستهزئين: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وقد ذكر الله تعالى أن هذا العذاب ليس بعيداً عن كل من يفعل هذه الفعلة

الشنعاء، خاصة أولئك المستهزئين اليوم بأهل الطهارة والعفة والصيانة فقال - جل ذكره: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدِۭ ۝٨٣ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]. ففى الآية الكريمة التحذير الشديد من هذه الجريمة النكراء، وأن عذاب الله ليس بعيداً من أصحابها في أى زمان ومكان.

opeikandl.com